ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونَه». ولم يكن حينذاك كثير الأنصار، ولم تكن دعوته قد استفاض أمرها وانتشر خبرها كما هى اليوم ومع ذلك صمم على أن يسير بها إلى النهاية؛ فكانت هذه الكلمة هى الدستور الذى وضعه لنفسه فلم يَحِد عنه قِيدَ شعرة.

لقد بذلت قريش فى هذا السبيل كل ما تستطيع من جُهد، وتوسلت إليه بكل ما تستطيع من حيلة، واستباحت ما يجوز وما لا يجوز فى عرف المروءة، وأتت من الأعمال ما قد لا يتصوره العقل، وثابرت وصابرت فى ذلك السنينَ الطوال. ولكنها بعد كل ذلك أدركت أن محمدًا لن ترهبه القوة مهما بلغت، ولن يخدعه الإغراء مهما عظُم، وأن كل محاولة لتحويله عن طريق هذه الدعوة لا تُجدى ولا تفيد؛ فأرادت أن تأتيه من طريق التعجيز والتحدى، لعلها بذلك تستطيع أن تثبّط همته، أو تكشف عجزه للناس فينصرفوا عنه وعن دعوته. فليطالبوه إذن بالمعجزات، ولَيتحدَّوْه أن يقدم برهانًا على صدق نبوته كما فعل غيره من الرسل والأنبياء. لقد أتى موسى قومه بالمعجزات وأتى عيسى قومه بالمعجزات، وأتى كل رسول قومه بمعجزة دلت على صدقه فيما يدعيه عن ربه؛ فإن كان محمد رسولا حيًّا ﴿فَلْيأْتِنا بِآيَة كما أُرْسِل الأولون﴾، فإن عجز